

المحور الرابع

الخوف من لوازم الإيمان

قال تعالى (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا النِّقَاطَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُوْحِدَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَسِبُكَ مِنْ دُونِي قَالَ سُبْحَانَ الَّذِي أَعْلَمُ السُّرُوءَ (62) قَالَ أَذْهَبَ مَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْتَهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُزُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65)

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنْاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوْحِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72)

تتناول الآيات الكريمة من سورة الإسراء (من الآية 58 إلى 72) منظومة سنن الله الكونية والنفسية في خلقه، وتدور حول وحدة موضوعية ركيزتها: التحذير من أسباب الهلاك، وبيان تقلب الإنسان بين نعم الله الكونية ووساوس الشيطان، وتكريم الله لبني آدم وإقامة الحجة عليهما يوم القيامة.

فتفسير الآيات بأسلوبها البديع الجامع بين الوعيد الحازم والرحمة الواسعة، لترسم مسار النفس البشرية ومصيرها، إذ تبدو الوحدة الموضوعية والترابط البنائي من خلال تنتقل الآيات في دفعات شعورية وفكرية متماسكة:-

ففي البداية تقرر الآيات من (58 - 60) حتمية النفاذ في سنن الإهلاك والوعيد، وبيان طبيعة الآيات والمعجزات التي يرسلها الله تخويفاً وتذكيراً، لا استجابةً لعناد البشر.

وفي الوسط تعود الآيات من (61 - 65) إلى جذر الصراع الإنساني؛ قصة آدم وإبليس، لتوضح سبب الغواية والضلال الذي يؤدي بالبشر إلى الهلاك المذكور في البداية.

ثم تذكر الآيات من (66 - 69) التحول الكوني والنفسي وتضرب الأمثال من واقع الحياة (ركوب البحر) لبيان تقلب النفس البشرية بين الجحود عند الرخاء، والالتجاء إلى الله عند الشدة.

وتأت الخاتمة الآيات من (70 - 72) لتبرز مقام التكريم الإلهي للإنسان، وتحمله مسؤولية الاختيارية التي تتجلى عواقبها يوم القيامة حين يُدعى كل أناس بإمامهم.

الخريطة الذهنية للسياق

القاعدة : كل قرية ظالمة لها موعد مع الهلاك البشري والآخروي.

السبب التاريخي : إبليس أخذ عهداً على نفسه باحتناك ذرية آدم وإضلالهم.

النموذج العملي للضلال : تكذيب المشركين بآيات الله كـ "الشجرة الملعونة" سخريةً وعناداً.

الحجة الواضحة : جحود الإنسان الذي يتذكر الله في البحر (الفلك) وينساه في البر، رغم أنه محاط بقدره الله وخطر الخسف والقصف.

النتيجة والفرز : تذكير الإنسان بتكريم الله له حتى لا يهين نفسه لاتباع الشيطان، وتحذيره من يوم القيامة حيث سيُحشر كل إنسان مع "الإمام" والقائد الذي اختار اتباعه في الدنيا.

الشرح الموضوعي للآيات

أولاً: حتمية السنن الإلهية وطبيعة الآيات (الآيات 58 – 60)

تبدأ الآيات بافتتاحية مهيبة تهز القلوب **وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا...** ، وهو إعلان لناموس كوني لا يتخلف؛ فالظلم والعتو عاقبتهما الزوال. ثم يرفع القرآن الحجاب عن حكمة عدم إرسال المعجزات المادية المشهودة التي طلبها مشركو مكة، مبيناً أن الأمم السابقة (كثمود) كذبت بها فاستحقت الاستئصال، والله يرسل الآيات تحويفاً ، ورحمة ليوظ الضمائر لا ليعاجلهم بالعقوبة. وتأتي الإشارة إلى الرؤيا و"الشجرة الملعونة" (شجرة الزقوم) كاختبار ومحك للتمحيص البشري بين مصدق بآيات الله وجاحد بها.

ثانياً: جذر الصراع البشري.. كبرياء إبليس وغواية الإنسان الآيات 61 – 65

ينتقل السياق إلى مشهد قديم متجدد، يعيد إبراز أصل المأساة الإنسانية. حيث يسجد الملائكة لآدم طاعة لله ، ويأبى إبليس كبراً وعناداً **أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** " وينبئ هذا التساؤل الاستنكاري عن قمة الجهل والاستكبار الشيطاني الذي يقيس الأمور بظواهر المادة (الطين) ويغفل عن النفخة الإلهية "الروح" .

ويبدو استعلاء الشيطان وهو يتحدى ربه بإعلانه العزم على أن يستأثر بإغواء ذرية آدم **"لَأُخْتِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا"** ، والاحتناك تشبيهه بليغ مأخوذ من وضع اللجام في فم الدابة لقودها حيث يشاء القائد

ويأتي الرد الإلهي حاسماً بترك الحرية له ولأتباعه ، إذ بذلك يبدأ ابتلاء الإنسان ، مستعرضاً أدوات الحرب الشيطانية : الصوت المثير (الاستفزاز)، الخيل والرجل (الجلبة والجيوش المادية والمعنوية)، والمشاركة في الأموال والأولاد بالربا والحرام وتغيير الفطرة. ورغم وسائل الشيطان في هذه الحرب كثيرة إلا أن سلطانه يسقط ويتحطم أمام فئة واحدة (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) ، فحصن العبودية لله منيع لا تخترقه سهام الغواية.

ثالثاً: جحود الإنسان وتدبير الله الكوني (الآيات 66 – 69)

ينتقل المشهد من عالم الغيب والصراع مع الشيطان إلى واقع الحياة المعيشية ، فيصور لنا القرآن مشهد لراكبي البحر وهم يتتغون فضل الله ؛ فالله هو الذي يزجي الفلك رفقا ورحمة. ولكن، ما إن تشتد الأمواج وتحقق الأخطار حتى تسقط الآلهة المزيفة والغرور البشري "ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ" ، فتخلص الفطرة لله وحده.

والعجيب في النفس البشرية هو سرعة نكرانها؛ فما إن يكتب الله لهم النجاة إلى البر حتى يعرضوا متناسين فضل الله "وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا" وهنا يقرع القرآن قلوبهم بسلسلة من تساؤلات الوعيد المخيفة: "أأمنتم أن يخسف الله بكم جانب البر؟ أم أأمنتم أن يرسل عليكم حاصباً (ريحاً ترمي بالحجارة)؟ أم أأمنتم أن يعيدكم في البحر تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم؟" إنها مواجهة صارمة تبين أن الإنسان في قبضة الله وتديره أينما حلّ وارتحل.

رابعاً: ميثاق التكريم والمصير الأخروي (الآيات 70 – 72)

بعد استعراض مظاهر الجحود البشري، تأتي آية من أرفع آيات التكريم الإنساني (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) هذا التكريم بالعقل، وبالفطرة، وبالسيادة على سائر المخلوقات، هو الحجة البالغة على الإنسان؛ فكيف يُقابل هذا الإعزاز الإلهي بالخضوع لغواية الشيطان؟! وتختتم هذا المقطع بمشهد الحساب الأخروي، حيث يُستدعى كل بشر مع "إمامه" (كتاب أفعاله، أو نبيه، أو قدوته الذي اتبعه). فمن أوتي كتابه بيمينه يقرأ كتابه بفرح ولا يُظلم مثقال فتيل نواة من تمر . أما من اختار العمى عن الحق في الدنيا وعاش في تيه الغواية "فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا" ، عمى عن طريق الجنة وجزاءً وفاقاً لعمى بصيرته في الدنيا.

إذ يكشف هذا المقطع من سورة الإسراء عن هندسة بديعة في النظم تُنسج فيها الآيات والقصص في مسبحة واحدة، يمسك أولها آخرها. ما تبدت في الظاهر لقطات متفرقة بين هلاك القرى، وعناد إبليس، وتقلب الفلك في البحر، وتكريم الإنسان، ما هي في الحقيقة إلا مشاهد متسلسلة لقصة الوجود الإنساني، وصراع الهداية والغواية على مسرح هذا الكون.

فمن هلاك القرى إلى أصل الحكاية (آدم وإبليس) إذ تبدأ اللوحة بإنذار كوني حاسم (وَأِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَنَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا) هذا مصير حتمي للقرى بوجه عام لانتهاه أجلها ، أو لظلمها ، ثم ينتقل السياق مباشرة إلى "أصل الحكاية" وجذر المشكلة، وهي قصة آدم وإبليس. يذكر القرآن رفض إبليس السجود لآدم، وكبره الذي دفعه لإعلان الحرب الشرسة (لَأَخْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) ، والرابط بينهما أن هلاك القرى وعذابها ليس ظلماً من الله، بل هو نتيجة منطقية لاستسلام الإنسان لعدوه الأول ، ومن هنا نجح إبليس في "احتناك" البشر (أي قيادتهم وتوجيههم كالذباب) نحو التكذيب والفساد. فالقصة تفسير لسبب هلاك القرى.

وفي وسط هذا الصراع، تبرز قصة "الشجرة الملعونة" (وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ) أجمع جمهور المفسرين (كابن عباس وغيره) على أنها شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم ، ومناسبة ذكرها في هذا السياق أنها عاقبة اتباع إبليس ، فقد زين لهم الدنيا فاتبعوه لأجلها فكانت نهاية أمرهم شجرة الزقوم ، وتلك هي ثمرة الغواية

ثم ينتقل السياق بعد ذلك إلى مشهد حسي يعيشه الإنسان (رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ) ، والرباط بين هذا المشهد والسياق أنه تطبيق عملي يكشف زيف الإنسان وتناقضه. فحين يركب البشر الفلك ويحيط بهم الموج والضرر، ينسون إبليس وشركاءهم، ويتضرعون لله وحده. لكنهم بمجرد أن ينجوا إلى البر، يعودون إلى غفلتهم ويقعون في شباك الاحتناك للإبليس مجدداً!

ولذلك جاء التهديد الإلهي للإنسان المتقلب حاله مباشرة كالصاعقة توفظ الغافل من غفلته . كأن الآيات تقول للإنسان: إن نجوت من البحر، فلا تأمن مكر الله في البر، فإن قدرته تحيط بك في كل مكان (خسفاً من تحتك، أو قصفاً من فوقك). وهو رد مباشر على استكبارهم وتكذيبهم بعد النجاة.

وفي الختام يأتي التقرير بتكريم آدم وتأهيله لمسئولية الخلافة ، (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) فالله لم ينقصه شيئاً من النعم بل أفاض عليه منها حتى وصل إلى درجة التكريم ، فعليه أن يكون بشكر النعمة بحق ، وينتبه لإمامه الذي يقوده الطريق ، فلا يجعل الشيطان قائده ، فالذي يقوده في الدنيا هو الذي يقوده لمصيره في الآخرة (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) هنا يُسدل الستار على المشهد الكوني. في ذلك اليوم، سينقسم البشر إلى فريقين بناءً على خياراتهم في الدنيا:

فريق اتبع "إمام الهدى" (الأنبياء والكتب)، وهم الذين حافظوا على تكريم الله لهم، ف (يُقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

وفريق اتبع "إمام الضلالة" (إبليس ومستكبري القرى)، فعميت بصائرهم في الدنيا، وسيكونون في الآخرة عمياً ، وأضل سبيلاً.

الخلاصة أن القرى تُهلك بذنوبها ← والذنوب يبدأ من استسلام الإنسان لاحتناك إبليس وتزيين الدنيا ← الذي يصل بهم إلى خيبة أملهم (الشجرة الملعونة) ← فالإنسان الذي ينسى نعم الله عليه وكرمه وإنجائه فيكفر ← هو الذي يستحق التهديد بالخسف والقصف ← رغم أن الله كرمه وأعطاه مقومات السيادة ← لينتهي الأمر يوم القيامة بمشهد بفرز البشر؛ كلٌ يتبع إمامه الذي اختاره في الدنيا "إما إلى كرامة الكتاب، وإما إلى عمى الحساب".

قال ابن القيم (الخوف أحد أركان الإيمان ، فهو مدار مقامات السالكين جميعها ، وهي الخوف والرجاء والمحبة ، قال أبو العباس الخوف هو الانحلاص عن طمأنينة الأمن والتيقظ لنداء الوعيد والحذر من سطوة العقاب .

قال أبو حامد الغزالي :-

سقي في الحب عافيتي ... ووجودي في الهوى عدمي

وعذاب ترتضون به ... في فمي أحلى من النعم

هذان البيتان يمحلان معاني الفناء في المحبة الصادقة، سواء أكانت في حب الله تعالى أو في حب النبي ﷺ .

يخبر الشاعر أن مرضه وتعب جسمه ونحوه في هذا الحب ليس مرضاً ضاراً، بل هو عين عافيته وسلامته الروحية، لأن آلام الحب تُطهر القلب. أما وجوده المستقل وأنايته وبقاؤه لنفسه في هذا الهوى فهو بمنزلة "العدم"، بمعنى أنه لا يحس بوجوده الحقيقي إلا عندما يفنى في محبوبه.

فلما كان ذلك وكان سياق آيات هذا المقطع يدور حول تخويف الله الإنسان عقوبته حتى يخاف ربه فقد اتخذت لذلك وسائل عدة ، وذلك ظاهر من خلال هذه النقاط :-

- النقطة الأولى : تخويف الله الإنسان بسنته في إهلاك القرى قبل يوم القيامة

ويسير الشعراوي مع هذا الرأي فيتساءل في حكم هذه الآية (هل كل القرى ينسحب عليها هذا الحكم؟) ويجب بلا مغللا بأن (هذا حكم مطلق والإطلاقات في القرآن تُقيدها قرآنيات أخرى، وسوف نجد مع هذه الآية قول الحق سبحانه (ذلك أن لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) (الأنعام: 131)، وقال تعالى: كَبُرَتْ نَاكَ أَمَوْ) ،عقب سلا دةعاقلا نم ءانتسلاا حضوُتْ مقصصُخْم تايأ هذهدف (117: دوه) (نُوْخِلِصْنُم أَهْلُهَاوْ مُلْظُبْ بَرَقلا كَلْهُيْلْ

(¹) تفسیر ابن کثیر ج 5 ص 89

(7) رواه البخاري

قوله (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِّفًا) (59) فعن ابن عباس قال : سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهاباً وأن ينحي عنهم الجبال فيزدعروا قال الله عز وجل إن شئت آتيناهم ما سألوا فإن كفروا أهلکوا كما أهلک من قبلهم وإن شئت نستأني بهم لعلنا ننتج منهم ، فقال لا بل أستأني بهم فأنزل الله هذه الآية (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة)⁸ ، والمناسبة أن ثمود سألوا آية مبصرة فأخرج الله لهم ناقة من الصخر ، وأمرهم ألا يمسوها بسوء ، ولكنهم كفروا وعقروها .

قال ابن جزري (إن أراد بالآيات هنا المقترحة -من الكفار- فالمعنى أنه يرسل بها تخويفاً من العذاب العاجل وهو الإهلاك ، وإن أراد المعجزات غير المقترحة ، فالمعنى أنه يرسل بها تخويفاً من عذاب الآخرة ، ليراهم الكافر فيؤمن)⁹ وقيل : (المراد بالآيات هنا الرعد والزلازل والكسوف ، وغير ذلك من المخاوف كما في قوله (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) (الرعد 13) وقيل هي نوع من العذاب يسلمه الله على أهل المعاصي لعلهم يرجعون ، قال ربنا عز وجل: (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) (المؤمنون: 76)

قوله (...وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِّفًا) (59) قال ابن القيم (أمر سبحانه بالخوف منه في قوله (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) فجعل الخوف منه شرطاً في تحقيق الإيمان ... والمقصود أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يتخلف عنه.

وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه فقال عن أنبيائه بعد أن ثنى عليهم ومدحهم إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا فالرغب الرجاء والرغبة والرهبة والخوف والخشية وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون

وفي الصحيح عن النبي أنه قال (إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية) ، وكان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء ، وقد قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فكلمنا كان العبد بالله أعلم كان له أخوف ، قال ابن مسعود (وكفى بخشية الله علما) ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به ، فأعرف الناس أخشاهم لله ، ومن عرف الله اشتد حيأؤه منه وخوفه له وحببه له وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفا وحباً فالخوف من أجل منازل الطريق .

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزاؤها وذكر المعصية والتوعد عليها وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف مالا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو . وأما إن كان مستقيماً مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس لعلنه بأن الله مقلب القلوب وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل فإن شاء

(8) رواه النسائي في سننه الكبرى ج6 ص 380 رقم 11290 وصححه الألباني : صحيح السيرة 152/1 السلسلة الصحيحة المجلدات 13/191
(9) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 905

أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاعه .. واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، فأبي قرار لمن هذه حاله ؟ ومن أحق بالخوف منه ؟ بل خوفه لازم له في كل حال ¹⁰.

ورغم أن الله يرسل الآيات ليزداد خوف العباد من الله ، فإن تأثر الناس بالآيات والإنذار يختلف بحسب حالهم مع الله قد تجلّى هذا التمايز الإيماني في مقالة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود إذ قال (كُنَّا نَعُدُّ الْآيَاتِ بَرَكَةً وَأَنْتُمْ تَعُدُّوْنَهَا تَخْوِيفًا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَقُلَّ الْمَاءُ فَقَالَ اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ ثُمَّ قَالَ خَيَّ عَلَى الطُّهُورِ الْمُبَارَكِ وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ) ¹¹.

وفي توجيه هذا المعنى، يُفصح الإمام الطحاوي عن عمق هذا التباين؛ فيبين أن رؤية الصحابة للآيات كـ"بركة" إنما نبعت من وجل قلوبهم وخوفهم الإيجابي الذي أثمر زيادةً في الإيمان ومسارةً في العمل الصالح، فغدت الآيات في حقهم غيثاً يفيض بالبركات. وعلى النقيض من ذلك، وقف من بعدهم أمام الآيات موقف الوجمل العقيم الذي لا يتبعه عمل، فخرموا بركتها.

قال الإمام الطحاوي في قوله (كنا نعدّها بركة) ؛ لأننا نخاف بها فنزداد إيماناً وعملاً ، فيكون ذلك لنا بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً ولا تعملون معها عملاً يكون لكم به بركة، ولم يكن ما قال عبد الله - عندنا - مخالفاً لما جاء به كتاب الله عز وجل من قول الله عز وجل: (وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) أي: (تخويفاً لكم بها لكي تزدادوا عملاً، وإيماناً فيعود ذلك لكم بركة) ¹².

ولا يُظنّ أن في مقالة ابن مسعود تعارضاً مع البيان القرآني في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؛ بل إن التخويف الإلهي مقصده الأسمى هو حث النفوس على الإنابة والعمل، لتؤول عاقبة الخوف إلى بركة ونماء.

إنها إشارة بليغة من ابن مسعود إلى تمايز الأجيال؛ فقد كان جيل الصحابة الأبرار تكفيهم المعجزات الرقيقة المفعمّة بالرحمة والبركة — كنبع الماء — لتثبيت إيمانهم وزيادة يقينهم، في حين احتاجت العصور اللاحقة إلى الآيات المهيبة كالرعد والبرق لتلهز القلوب اللاهية وتوقظها من غفلتها.

قوله (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) هذه الآية توطئة لتكليف النبي ﷺ بأن يحكي لقومه عما رآه في رحلة الإسراء والمعراج ، فلا يخشى أن يكذبوه ، ويزداد تكذيبهم له وسخريتهم منه ، ففيها (إخبار للنبي ﷺ بأنه محفوظ من الكفرة وآمن) ¹³ ، فعن قتادة قال : (أحاط بهم فهو مانعك منهم ، وعاصمك حتى تبلغ رسالته) ¹⁴ ، وقال مجاهد (فهم في قبضته) ¹⁵ ، يقول ابن كثير (يقول تعالى لرسوله ﷺ محرّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته) ¹⁶.

¹⁰ (طريق الهجرتي ج 1 ص 440

¹¹ (رواه البخاري ج 11 ص 415 رقم 3314

¹² (بيان مشكل الآثار للطحاوي 153/8 شرح مشكل الآثار ج 9 ص 6

¹³ (تفسير الثعالبي 387/2

¹⁴ (تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 168 رقم 13693

¹⁵ (تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 168 رقم 13692

¹⁶ (تفسير ابن كثير ج 5 ص 91

قوله (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ..) (يعني ما أراه الله ليلة أسرى به وليس برؤيا المنام ولكن بالمعاينة إلا فتنة للناس للمشركين لما أخبرهم النبي ﷺ بمسيرة إلى بيت المقدس ورجوعه في ليلة كذب بذلك المشركون فافتتنوا لذلك ، وارتد كثير ممن كان أسلم قبل)¹⁷ ، فمما أمر النبي ﷺ ببلاغه لقومه رحلة الإسراء والمعراج ، التي لم يكن أحد من قومه ليصدقها في حكايتها لهم ، ولذلك خشي أن يكذبوه ويرتدوا عن الإسلام ، لأن العقل لا يتسوعب هذه القصة ، فكانت امتحانا للناس ليصدقوه فيما يحكيه من غيبات ، إذ لو لم يصدقوه في رحلة إلى القدس فكيف يصدقونه في الرحلة الدار الآخرة ؟ وبهذه الفتنة تكونت النواة الصلبة من الصحابة التي صدقت النبي وأحاطت ونصرتة وأزرتة في كل المواقف والغزوات .

فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ « أسري به على البراق ، وهي دابة إبراهيم التي كان يزور عليها البيت الحرام ، يقع حافرها موضع طرفها ، قال : فمررت ببعير من عيرات قريش بواد من تلك الأودية ، فنفرت العير ، ومنها بعير عليه غرارتان سوداء وورقاء ، فلما رجع رسول الله ﷺ حدث قريشا أنه أسري به ، قال : فارتد ناس كثير بعد ما أسلموا ، قال أبو سلمة : فأتي أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فقيل له : هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه أسري به إلى بيت المقدس ثم رجع في ليلة واحدة قال أبو بكر : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأشهد ، إن كان قال ذلك ، لقد صدق ، قالوا : أفتشهد أنه جاء الشام في ليلة واحدة ؟ قال : إني أصدقه بأبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء)¹⁸ .

وهكذا يُعلم الله سبحانه نبيه أنه أراد بهذه الرؤيا أن يحيط نبيه علما بالناس الذين يؤمنون به وبالغيب ، وغيرهم ممن ليسوا كذلك ، ولذلك لما ارتد كثير من الناس عن الإسلام لما سمعوا ذلك الخبر ، وصدقه أبو بكر الصديق عُرفت بعد النواة الصلبة للدعوة الإسلامية التي تنبت بعد ذلك واستطال زرعها .

قوله (...وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ..)(60) من جملة الآيات التي أخبر بها النبي ﷺ فيما رآه في رحلة الإسراء والمعراج ، شجرة الزقوم التي يخوف الله به عباده ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) قَالَ هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَالَ (وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ) قَالَ هِيَ شَجَرَةُ الزُّقُومِ)¹⁹ .

والرأي الراجح والمأثور عن الصحابة (كابن عباس) والتابعين في تعيين هذه الشجرة الملعونة أنها شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم. ووُصفت بالملعونة لأنها "مبعدة عن كل خير"، أو لأن العرب تقول عن الطعام الرديء الضار "طعام ملعون". (وقيل إن الملعون في الآية هم أكلوها)

ومناسبة ذكرها في هذا السياق: باعتبارها (فِتْنَةً لِلنَّاسِ) أنها كذلك من الغيب الذي أمر النبي ﷺ أن يحكيه لقومه ، فسخروا منه وقالوا : كيف تنبت الشجرة في النار والنار تحرق الشجر؟

¹⁷ (تفسير ابن أبي زمنين ص 369

¹⁸ (تهذيب الآثار للطبري ج 6 ص 258 رقم 2758

¹⁹ (رواه البخاري ج 12 ص 274 رقم 3599

والربط بالسياق : أن هذا الجدال والسخرية يمثل نموذجاً عملياً لكيفية احتناك الشيطان لعقول الكفار؛ حيث استعملوا قياساً عقلياً قاصراً ليرفضوا كلام الله، تماماً كما قاس إبليس سابقاً وقال : (أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا).

فالنبي ﷺ لما حكى لكفار قريش رحلته تلك كذبوه لأنه كان البارحة معهم ، فمتى ذهب ومتى جاء ، وهم يعرفون أنه لم يذهب هناك منذ الصغر ، لكنه لما وصف لهم المسجد الأقصى المبارك كأنه رأي العين ، لم يقدرُوا على أن يكذبوه ، فتلك إذن آية على صدقه ، لكن لما استطرد في الوصف وتحدث عن الجنة والنار وكأنها رأي العين ، وتحدث عن شجرة الزقوم ، هنا عنادوه وظلوا يكذبونه ، مخافة أن يقيم الحجة عليهم ، فيضطروا لأن يؤمنوا بتلك الحجة.

فعن ابن زيد في قوله "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس" قال هذا حين أسرى به إلى بيت المقدس افتتن فيها أناس فقالوا يذهب إلى بيت المقدس ويرجع في ليلة وقال لما أتاني جبريل صلوات الله عليه بالبراق ليحملني عليها صرت بأذنيها وانقبض بعضها إلى بعض فنظر إليها جبريل عليه السلام فقال والذي بعثني بالحق من عنده ما ركبك أحد من ولد آدم خير منه ، قال فصرت بأذنيها وارفضت عرقا حتى سال ما تحتها وكان منتهى خطوها عند منتهى طرفها ، فلما أتاهم بذلك قالوا ما كان محمد لينتهى حتى يأتي بكذبة تخرج من أفطارها ، فأتوا أبا بكر فقالوا هذا صاحبك يقول كذا وكذا فقال أوقد قال ذلك قالوا نعم ، فقال إن كان قال ذلك فقد صدق ، فقالوا تصدقه أن قال ذهب إلى بيت المقدس ورجع في ليلة فقال أبو بكر نزع الله عقولكم أصدقه بخبر السماء والسماء أبعد من بيت المقدس ولا أصدقه بخبر بيت المقدس قالوا للنبي ﷺ إنا قد جئنا بيت المقدس فصفه لنا ، فلما قالوا ذلك رفعه الله عز ذكره ومثله بين عينيه فجعل يقول هو كذا وفيه كذا فقال بعضهم وأبيكم إن أخطأ منه حرفا قال فقالوا هو رجل ساحر²⁰.

وعن النبي ﷺ أنه قال (وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الرُّقُومِ قُطِرَتْ لِأَمَرْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَيْشَهُمْ فَكَيْفَ مَنْ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا الرُّقُومُ)²¹، فاستهزءوا به وبها .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال أبو جهل لما ذكر رسول الله - ﷺ شجرة الزقوم تخويفاً لهم يا معشر قريش ، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا : لا . قال : عجوة يشرب بالزبد - والله لئن استمكننا منها لنتزقمها تزقماً . فأنزل الله : "إن شجرة الزقوم طعام الأثيم" [الدخان : 43 ، 44] وأنزل الله " والشجرة الملعونة في القرآن " الآية²².

وقيل أن الشجرة الملعونة في القرآن كناية عن نسل بني إسرائيل ، قال الماوردي (والشجرة كناية عن المرأة ، والجماعة أولاد المرأة كالأغصان للشجر)²³

²⁰ (تهذيب الآثار مسند ابن عباس ج 1 ص 462

²¹ (رواه أحمد في مسنده ج 4 ص 467 رقم 2735 وابن حبان في صحيحه ج 16 ص 511 رقم 7470 وصححه الألباني : مشكاة المصابيح ج 3 ص 234 رقم 5683

صحيح وضعيف الجامع الصغير ج 4 ص 6 رقم 9381

²² (أخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي انظر تخريج السيوطي الدر المنثور ج 6 ص 296

²³ (النكت والعيون ج 2 ص 439

وقيل في القول الثالث (أنهم اليهود تظاهروا على رسول الله ﷺ مع الأحزاب ، قاله ابن بحر) ، ويؤكد ذلك ما ذكر من علامات القيامة وزراعة اليهود لشجر الغرقد ليختبئوا خلفه عند المعركة الفاصلة بينهم وبين المؤمنين روي أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ إِلَّا الْغَرَقْدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ²⁴ ، قال النووي الغرقد نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس وهناك يكون قتل الدجال واليهود²⁵

لكن عند التحقيق يمكن القول بأن الشجرة الملعونة هي رمز لكل شرك بالله تعالى مثل (ذات أنواط) ، فعن أبي واقد الليثي يقول - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ : لما افتتح رسول الله مكة، خرج بنا معه قبل هوازن، حتى مررنا على سدرة الكفار: سدرة يعكفون حولها، ويدعونها ذات أنواط، قلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال رسول الله ﷺ "الله أكبر، إنها السنن، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون" ثم قال رسول الله ﷺ "إنكم لتركبن سنن من قبلكم"²⁶.

يقول الشيخ باسم جرار (إذا كان اليهود هم الشجرة الملعونة في القرآن، فهذا يكون على اعتبار أنهم يلتقون في أصل اعتقادي، ولا يصح أن تكون اليهودية قائمة على النسل، لأن "اليهودي" في الحقيقة هو الذي يؤمن بالأصول اليهودية؛ في الاعتقاد والتشريع والأخلاق ، والعدل يقتضي أن يكون اللعن نتيجة لممارسة الفرد أو الأمة لأمر اختياري ، والذي يُرَّجَح أن المقصود بالشجرة الملعونة هم اليهود، أمور منها :-

أولاً : إن الآية التي نحن بصدددها هي في سورة الإسراء، والتي تسمى أيضاً سورة بني إسرائيل، وهي تتحدث عن إفساد اليهود في الأرض المباركة ، وتُسْتَهْل السورة بنبوءة مستقبلية تتحدث عن إفساد اليهود في الأرض المباركة ، ويرد الكلام عن هذا الإفساد في خواتيم السورة أيضاً، مما يشير إلى مركزية هذا الحدث في السورة التي تسمى الإسراء، وفي هذا إشارة إلى المسجد الأقصى ، أما تسمية سورة بني إسرائيل فتشير إلى الإفساد. وعليه لا يبعد أن تكون الرؤيا تتعلق بهذه القضية المحورية في السورة.

ثانياً : أن ما رآه الرسول ﷺ من أمور مستقبلية كانت تتعلق بسيطرة اليهود على المسجد الأقصى ، وعلى الأرض المباركة، - والتي هي عقر دار الإسلام - وتتعلق أيضاً بسيطرة هذه الشجرة الخبيثة على المستوى العالمي، وذلك في المرحلة الزمنية ذاتها ، ولا شك أن ذلك يُحْزَن الرسول ﷺ ، فكانت التعزية له ﷺ أن قيل له " وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس " ؛ فمقاليد الأمور هي بيد الله، أما ما رأيته يا محمد من سيطرة هؤلاء فهو نوع من الفتنة للبشر، وما رأيته فهو في حقيقته الشجرة الملعونة ، وبالتالي لن تكون لها ثمار ممتدة، بل إن هذه السيطرة العارضة محكوم عليها بالإخفاق، وهي مطاردة باللعن الإلهي.

ثالثاً : يقول تعالى " الشجرة الملعونة في القرآن " وهذا يعني أنه لا بد أن نجد لعنها في القرآن ، وبالرجوع إلى ألفاظ اللعن في القرآن الكريم نجد أن لفظ "لَعَنَ" ومشتقاتها قد وردت 41 مرة ، ولوحظ أن منها 18 مرة وقع فيها لعن اليهود على وجه الخصوص، ولم يشترك غيرهم معهم في هذه اللعنات ، أما باقي اللعنات، فإنها كانت للكافرين أو

²⁴ (رواه مسلم ج14 ص 140 رقم 5203

²⁵ (تحفة الأحوذى ج6 ص 410

²⁶ (رواه ابن حبان في صحيحه ج15 ص 94 رقم 6702 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 180 مشكاة المصابيح ج3 ص 174 رقم 5408

الظالمين أو الكاذبين... ولا شك أنّ اليهود يشتركون في هذه الصفات مع غيرهم ، وعليه ألا تكون هذه الملاحظة الإحصائية مؤشراً على أنّ اليهود هم الشجرة الملعونة في القرآن؟

أضف إلى ذلك أنّ الكثير من الأفكار والمذاهب والمدارس المنحرفة هي من صنع اليهود أو هي متأثرة بعقائدهم؛ كالماركسية، والوجودية، والماسونية... والمستهدف بهذه الأفكار والمذاهب هم البشر الذين نزلت رسالات السماء رحمة بهم ، أفلا يستحق اللعنة كل من نصب نفسه عدواً لله ولرسالاته ، وعدواً للحق والعدل؟! ألم يخبرنا الواقع بأنّ هذا هو مسلك اليهود عبر العصور المختلفة وإلى يومنا هذا؟! بل إنّ القرآن الكريم ينص على أنّ هذا سيكون مسلكهم إلى يوم القيامة.²⁷

وفي معرض الترجيح بين القولين، يتجلى لنا أن "شجرة الزقوم" شجرة أورد القرآن ذكرها مخفياً بها، بيد أنه لم ترد عليها لعنة؛ فليست هي المقصودة باللعن على الحقيقة، إذ كيف يُوجّه اللعن إلى جماعٍ غير مكلف؟ وإنما جعلت أداةً لوعيد الكافرين ونكالهم في الآخرة.

بالمقابل، نجد أن "اليهود" يرجعون في منبتهم وأصولهم إلى نسل نبي الله يعقوب عليه السلام—وهم "بنو إسرائيل"—فشكلوا بذلك شجرةً نسبيةً تنتمي إلى عائلة واحدة، وقد تضافرت الآيات وتواترت في لعنهم بهذه الصفة؛ كما في قوله تعالى (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ).

وما أشبه الليلة بالبارحة! فني الله داود الذي مرّ ذكره قبل خمس آيات في قوله تعالى: (وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَيْنًا)، ورغم ما وعاه التاريخ من عذوبة صوته وجلال ذكره، حتى كانت الجبال والطير تروّب معه وتُسبّح، إلا أن شدة عتوّهم طغت على رقة تسبيحه، فجرى اللعن على لسانه ضدهم.

ومن جماع هذا كله، ينقدح في الذهن أن "الشجرة الملعونة في القرآن" إنما هي كناية عن الذين كفروا من نسل يعقوب عليه السلام ؛ إذ انبثت أفعالهم عن البركة ، فلم تثمر شيئاً ، ولا سيما إذا استصحبنا ما قرّره الشيخ بسمال جرار آنفاً من أن لفظ "اليهود" صار علماً على من اتبع تلك الأصول الملتوية وسار في ركابها.

"وجمعاً بين كلا القولين—والله تعالى أعلم بأسرار كتابه— نقول: إنّ كثيراً من الخَلأَتِي جَلُوا في حياتهم الدنيوية من معين الأفكار اليهودية الآسنة، وتغذّت عقولهم على مناهجهم الفاسدة، حتى شابهوهم في كثير من أحوالهم؛ ومن كفر بمثل كفرهم خُشِرَ معهم، ومن تشبّه بفسقهم كان متوعداً بالعقوبة دون الخلود، والعدل الإلهي يفتضي جزاء كل عامل بما كسب، شجرة الزقوم غصّة بعد غصّة تلك الشجرة الملعونة في القرآن والله أعلم بالصواب"

قوله (وَنُحِيقُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا) فالخوف من الله هو رداء العارفين، وسيماء المقربين، وثمرة العلم بالله؛ فكلما اتسعت معرفة العبد بربه، عظم حياؤه وخوفه منه .وبقدر إشراق المشاهدة والأنس في القلب، يتلاشى ألم الخوف ويتحول طمأنينة، كالمحبّ الذي يستعذب البلاء ما دام بعين محبّوه، فإذا غاب المحبوب عاد إليه ألم العذاب.

وقد جعل سبحانه الخوف شرطاً للإيمان، وجليّةً للأنبياء والملائكة، فكانوا يدعونه "رغباً ورهباً". وليس نقصان الخوف إلا من نقص المعرفة، فمن عَرَفَ الله حقَّ المعرفة لم يسكن قلبه؛ تارةً من وجل الآخرة والمعصية، وتارةً من خشية تغليب القلوب، إذ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يحول سبحانه بين المرء وقلبه؛ فأيُّ قرارٍ أو أمانٍ لعبيدٍ وهو يعلم أن مصيره بيد مقلب القلوب؟²⁸

النقطة الثالثة : تخويف الإنسان من عدوه الشيطان ليحذر استفزازه .

قال تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) (61) فبعد ذكر هذا التهديد الشامل للقرى الظالمة، يأتي السؤال :لماذا يستحق البشر هذا الإهلاك والعذاب؟ والإجابة تكمن في قصة آدم وإبليس لتكشف الجذر التاريخي والسبب الحقيقي لضلال تلك القرى. فالسبب هو استجابة ذرية آدم لغواية إبليس الذي أقسم : (لَأَخْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) (أي سأقودهم كما تُقاد الدابة بلجامها). فإهلاك القرى هو النتيجة الحتمية لنجاح إبليس في "احتناك" أهلها وقيادتهم نحو الكفر والظلم.

قوله (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) (61) إذن أراد الله أن يضرب مثالا للكبر الذي يؤدي بصاحبه للكفر واللعن ومن ثم الإهلاك قبل يوم القيامة ، فضرب المثال بذكر قصة إبليس ورفضه السجود والخضوع لآدم باعتباره خليفة في الأرض ، استكبارا منه دون وجه حق فعوقب باللعن .

والمراد بالسجود في هذا السياق هو التذلل والخضوع وليس العبادة ، فالعبادة لا تجوز إلا لله ، قال الراغب في المفردات " السجود أصله التطامن والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته" ، أما السجود بمعناه الاصطلاحي في الشرع الذي هو وضع الجبهة على الأرض ، فليس هو المقصود من الأمر للملائكة بالسجود لآدم ، وإنما المقصود هو التذلل والتطامن ، بالانقياد لأوامر آدم وقيادته .

والدليل على ذلك أن الله لما أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الباب سجدا (بيت المقدس) كان المعنى المراد هو الدخول على هيئة التطامن والتذلل لا التكبر والغطرسة ، كذلك لما أخبر القرآن في أكثر من موضع سجود الشمس والقمر والنجوم والكائنات لله تعالى ، فمن المعلوم أنها ليس لها قدم ولا ساق حتى تسجد مثل هيئة المصلي في الصلاة ، وإنما المراد الانسياق مع مراد الله الكوني والانصياع لقدرته الكونية وعدم الخروج عنها .

⁽²⁸⁾ ملخص كلام ابن القيم في كتاب الهجرتين سبق ذكره

وذكر هذه القصة يؤكد الدلالة الرمزية للشجرة الملعونة ، بأن كل من يتكبر فإنه ملعون ، وكل أعماله ملعونة وليست مباركة ، فلن تثمر شيئا ، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ يقول الله سبحانه الكبيرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم²⁹.

قال ابن القيم (فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام كان في امتثال أمره وطاعته سعادته وفلاحه وعزه ونجاته فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة : أن في سجوده لآدم عليه السلام غضاضة عليه وهضما لنفسه إذ يخضع ويقع ساجدا لمن خلق من طين وهو مخلوق من نار والنار بزعمه أشرف من الطين فالمخلوق منه خير من المخلوق منها وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضة عليه وهضم لمنزلة فلما قام بقلبه هذا الهوس وقارنه الحسد لآدم لما رأى ربه سبحانه قد خصه به من أنواع الكرامة فإنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وميزه بذلك عن الملائكة)³⁰.

ولعل ذلك توطئة لبيان تولى أمة محمد مسئولية الخلافة بدلا من بني إسرائيل ، ليستعد هؤلاء للانتقال إلى قيادة الأمة المحمدية لها ، فلا يقع في قلبهم حسد لذلك ، قال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (النساء 52) أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (النساء 53) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (النساء 54) .

وتأكيدا لهذا المعنى قال رسول الله ﷺ (لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْكُمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ قال نافع غلام جابر بن سمره : وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ (عَصِيْبَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَتِحُونَ الْبَيْتَ الْأَبْيَضَ بَيْتَ كِسْرَى أَوْ آلِ كِسْرَى)³¹.

وقال رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِيَ مِنْهَا)³².

قوله (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا)(62) قال الألوسي والمعنى (لأستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم : حنك الدابة واحتنكها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلا يقودها به)³³، قال ابن جزى (معناه لأستولين عليهم ولأقودهم ، وهو مأخوذ من تحنيك الدابة ، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتتقاد)³⁴، قال ابن عباس (لأستولين)³⁵.

²⁹ (رواه ابن ماجه ج12 ص 211 رقم 4164 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج2 ص 405 رقم 3365

³⁰ (إغاثة اللهفان ج2 ص 200

³¹ (رواه مسلم ج9 ص 338 رقم 3398

³² رواه مسلم

³³ تفسير الألوسي ج11 ص8

³⁴ التسهيل لعلوم التنزيل ص 907

³⁵ (تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 171



فكان الشيطان يقود من أطاعه من هذه الذرية كما تقاد البهائم ، وعلى وجه الخصوص ليحتنك الشجرة الملعونة من ذرية آدم عليه السلام ، أي يستولي عليهم إبليس فيجعلهم من أتباعه ، قال تعالى فيهم «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» (سورة البقرة: 102). نبدوا كلام الله وراء ظهورهم ، واستبدلوا الوحي الإلهي بالسحر الذي هو عين اتباع الشيطان .

قوله (قَالَ ادْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا) (63) ، قال ابن القيم (اعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه)³⁶ ، واليهود هم أكثر الناس اتباعا للشيطان ، فمنهج اليهود والشيطان واحد ، وهو الاستعانة بالشيطان ، ولذلك تجدهم هم الذين يتبعون المسيح الدجال ، ومن قبل اتبعوا السحر كما تقدم في قوله (واتبعوا ما تتلوا الشياطين..) ، قال تعالى (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [سبأ 20] ، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) (المائدة 82) .

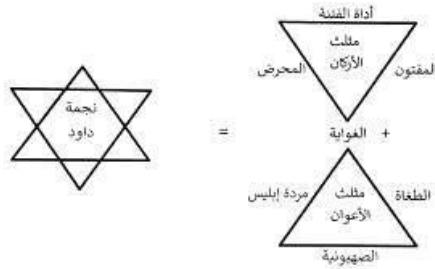
تتجلى في غواية الشيطان الأولى لآدم وزوجه عليهما السلام عظة خالدة تتردد أصدائها في وعي البشرية؛ فمنذ أن نفث إبليس وسوسته الأولى واعداً بالخلد والملك الزائل، كما صوّر القرآن الكريم: (فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّا يَبْلَى) ، سقطت الإنسانية في اختبارها الأول. ولم يكن شؤم تلك المعصية مجرد هبوط إلى الأرض، بل كان انكشافاً للستر وتبدلاً للحال، تجسده الآية المحكمة: (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى).

إن هذه الخطيئة لم تكن عثرة عابرة، بل صيغت لتكون درساً رابياً صارماً لذرية آدم، يحذرهم من تلمس خطوات الشيطان. فالغواية تثمر وحشة، والمعصية تورث شؤماً يلاحق مقترفيها كظله، ليصبح مصير كل من يسير في ركاب الوسوس كمصير الأيوبي حين ذاقا الشجرة؛ يُسلب ثوب الطمأنينة، ويدوق مرارة الطرد، وتتخطفه لعنة الذنب حتى يثوب إلى رحمة غفار الذنوب.

وكذلك ينسحب الحائل على من اتبع «شياطين الإنس»؛ وانقاد لسموم أفكار اليهود ووسوسهم الحقيّة، وهو ما تبّهت إليه حكمته الاستعاذة الشاملة من هزات الشياطين من الجنّة والنّاس أجمعين. فاليهود — مُحكم البيان القرآنيّ — هم أشدّ النَّاسِ عداوةً للذين آمنوا وأعظمهم شرًّا؛ بل قد بلغ من حُبِّ مكرهم أن ستمّاهم الله «شياطين» في معرض

كشفت حقيقة علاقة المنافقين بهم، حين حكى عنهم جلّ وعلا قائلاً: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾³⁷.

ومن جهة أخرى فإن (شجرة الزقوم) هي جزاء العاصي الذي لم يتب في الآخرة ، وقد تمكن منه الشيطان واستحوذ عليه .



من جماع ما تقدم يستبين لنا أن هناك خمس شجرات : أربع حقيقية وواحدة مستعارة ، شجرة "جنة الابتلاء" كما في قصة آدم وعقب الأكل منها طرد آدم من الجنة ، وشجر "أنواط" الذي يستعملونها لأغراض السحر وتلبس الجن ، وشجر "الغرقد" الذي يختبئون خلفه يوم انتصار المسلمين عليهم ، وشجرة "الزقوم" وهي شجرة الجزاء للكافرين جزاء موفورا .

، وشجرة "اليهود" أي نسلهم من الكافرين ، الذين ينشرون وساوسهم في الناس كأنهم يزرعون الشر فيهم بأيديهم ويؤلبون الناس بعضهم على بعض تنفيذاً لمخطط الشيطان .

قوله (وَاسْتَفْزَزْ مِنْهُمُ بَصُوتَكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بَحِيلِكَ وَرَحِّلْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) (64) هذه الآية حصرت مكائد الشيطان التي بها يتسلط على ابن آدم ، (الاستفزاز ، الإجلاب ، المشاركة ، التغير) وهي كالتالي : -

أولاً : سياسة الشيطان الاستفزازية : يعني وسوسته لابن آدم ليغتر بنفسه ويتكبر ويغضب فيرتكب ما حرم الله انتقاماً لنفسه ، (ومنه استفزه الغضب استخفه)³⁷ كما قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزُّهُمْ أَزْأًا) (مريم 83) .

ومن يريد أن لا يتغلب عليه الشيطان عليه أن يتخلق بأخلاق النبي ﷺ فقد قيل في وصف أخلاقه ﷺ (كَانَ لَا يُغْضِبُهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَسْتَفْزِئُهُ)³⁸

ولكي لا يقع المسلم في استفزاز الشيطان عليه ألا يغضب عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْصِنِي قَالَ (لَا تَغْضَبَ فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ لَا تَغْضَبُ)³⁹

(37) تفسير روح البيان ج5 ص 138
(38) شرح السنة للبغوي ج1 ص 871 باب علامة النبوة
(39) رواه البخاري ج19 ص 74 رقم 5651

فإذا غضب الإنسان فعليه ألا يسترسل في الغضب وليكظم غيظه ، وليهدئ نفسه قبل أن يفور غضبه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ)⁴⁰.



قال علماء الإجرام أن الدراسات أثبتت أن 99% من الجرائم والمشاكل التي تحدث بين الناس تحدث في الـ 20 ثانية الأولى من حدوث السبب المؤدي للغضب الذي يشبه الطريق المزدحم المثير للضييق والضجر والمسبب للانزعاج والتوتر، ثم يليه طريق واسع مريح سيستمتع به كل منا إذا تحكّم في انفعالاته في الطريق المزدحم)⁴¹

وقد أوصى النبي ﷺ بجملة آداب غير الوضوء لتجنب الغضب ، فعن أبي ذرٍّ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَنَا إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيُضْطَجِعْ)⁴²
وعن سليمان بن صرد - رجلا من أصحاب النبي ﷺ - قال (اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَحَنَّنَ عِنْدَهُ جُلُوسٌ وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغَضَّبًا قَدْ احْمَرَّتْ وَجْهُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَقَالُوا لِلرَّجُلِ أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ)⁴³ .

قال الحافظ : هو خطاب من الرجل للرجل الذي أمره بالتعوذ ، أي امض في شغلك ، واخلق بهذا المأمور أن يكون كافراً أو منافقاً ، أو كان غلب عليه الغضب حتى أخرجه عن الاعتدال بحيث زجر الناصح الذي دله على ما يزيل عنه ما كان به من وهج الغضب بهذا الجواب السييء
وقيل : إنه كان من جفاة الأعراب ، وظن أنه لا يستعيز من الشيطان إلا من به جنون ، ولم يعلم أن الغضب من شر الشيطان ومسه ، ولهذا يخرج به عن صورته ، ويزين إفساد ماله كتقطيع ثوبه وكسر آنيته ، أو الإقدام على من أغضبه ، ونحو ذلك مما يتعاطاه من يخرج عن الاعتدال)⁴⁴ .

⁴⁰ (رواه أحمد ج36 ص 421 رقم 17302

⁴¹ (رابط المادة79: http://iswy.co/evr

⁴² (رواه أبو داود ج12 ص 402 رقم 4151 وصححه الألباني ج1 ص 70 رقم 696

⁴³ (رواه البخاري ج19 ص 73 رقم 5650

⁴⁴ (مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج8 ص 165 رقم 2442

وقال النووي (قول هذا الرجل الذي اشتد غضبه "هل تري بي من جنون" ، كلام من لم يفقه في دين الله تعالى ، ولم يتهذب بأنوار الشريعة ، وتوهم أن الاستعاذة مختصة بالجنون ، ولم يعلم أن الغضب من نزعات الشيطان ، ولهذا يخرج الإنسان عن اعتدال حاله ، ويتكلم بالباطل ويفعل المذموم وينوي الحقد والبغض ، وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب)⁴⁵.

الشيطان يستعين على استفزاز ابن آدم بصوته ، يعني صوت الوسوسة التي يسمعه المرء سواء من الشيطان مباشرة أو من أهل سوء ، والمعنى أن الكلمة التي يسمعها ابن آدم سواء من شيطان الإنس أو الجن قد تنمي شرا بين الناس فتوقع بينهم ، كأن يأمره بإفشاء الأسرار بين الناس للإيقاع بينهم ، ويفسد المرأة على زوجها والزوج على زوجته ، يقول النبي ﷺ (لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا)⁴⁶ والتخبيب هو إفساد المرأة على زوجها، بأن يسعى إلى أن يفسد ما في قلبها حتى يكون الفراق)⁴⁷ ، وهكذا يستبين صوت الشيطان في كل استفزاز يقع بين الناس فيصير إلى ومفسدة وفتنة ، ولا يطرده إلا صوت الآذان ، الله أكبر .

وفي المقابل يقول النبي ﷺ (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيقول خيرا أو ينمي خيرا)⁴⁸ ، قال النووي في الشرح (وحاصله أن يأتي بكلمات محتملة يفهم المخاطب منها ما يطيب قلبه وإذا سعى في الإصلاح نقل عن هؤلاء إلى هؤلاء كلاما جميلا ومن هؤلاء إلى هؤلاء كذلك)⁴⁹ ، قال البيضاوي : (قوله ينمي خيرا أي يبلغ خير ما يسمعه ويدع شره يقال نميته الحديث مخففا في الإصلاح ونميته مثقلا في الإفساد ، والأول من النماء لأنه رفع لما يبلغه والثاني من النميمة وإنما نفى عن المصلح كونه كذابا باعتبار قصده ، وهذه أمور قد يضطر الإنسان فيها إلى زيادة القول ومجاوزة الصديق طلبا للسلامة ودفعاً للضرر ورخص في السير من الفساد لما يؤمل فيه من الصلاح والكذب في الإصلاح بين اثنين أن ينمي من أحدهما إلى صاحبه خيرا ويبلغه جميلا ، وإن لم يكن سمعه منه بقصد الإصلاح)⁵⁰

ثانيا : حملات إبليس الإجلالية : قال ابن كثير (واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم .. ومعناه: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه)⁵¹ ، أي شن حرب شعناء ، كناية عن محاربته لابن آدم بكل قوته ، وفي أماكن ضعفه ، وقلة حيلته ، وفي ذلك دلالة عظيمة على أن الشيطان لا يدخر وسعا لإغواء ابن آدم ، وأنه يشن حملات وجولات ، وكلما فشلت حملة تبتعثها حملة أخرى وهكذا لا ييأس الشيطان من إغواء ابن آدم

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس وأقبل بوجوه الشهوات إليه وزين له من الأحوال والأعمال ما يصد به عن الطريق وأمدّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق ، ونصب له من المصايد والحبال ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق ، فلا نجاة من

⁴⁵ (مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج 8 ص 165 رقم 2442

⁴⁶ (رواه أبو داود ج 6 ص 86 رقم 1860 صحيح وضعيف الجامع الصغير ج 20 ص 140 رقم 9568

⁴⁷ (شرح سنن أبي داود ج 12 ص 188

⁴⁸ (رواه البخاري في الأدب المفرد ج 1 ص 139 رقم 385

⁴⁹ (شرح النووي على مسلم ج 16 ص 158

⁵⁰ (فيض القدير للمناوي ج 5 ص 458

⁵¹ (تفسير ابن كثير ج 5 ص 94

مصايد ومكايدته إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول ضمن (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) [الحجر : 42] فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين وإشعار القلب⁵² .

فمن مظاهر جبلة الشياطين على ابن آدم وإبليس يسوسهم ، ما روي عن أبي سفيان عن جابر قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَقْتُونُ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً⁵³ .

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ قَالَ فَيُذْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نَعَمْ أَنْتَ)⁵⁴ ، قال النووي قوله (نَعَمْ أَنْتَ) : (وهي نعم للمدح فيمدحه لاجتماعه بصنعه وبلوغه الغاية التي أرادها) قوله (فيلتزمه) أى (يضمه إلى نفسه ويعانقه)⁵⁵ .

ويستعين إبليس في حملاته بخيله ورجله ، فالخيالة تشن حرب مباشرة ، والرجالة قد يقومون بعمليات خاصة أو سرية ونوعية أو تحركات تكتيكية.

يعني ذلك أنه يشن تلك الحرب بطريقتين ، فإما يشن غارة مباشرة بالخيال الإجلاب عليه بالنساء والشهوة المحرمة أو يجلب عليه بطريقة مستترة كأن يدس رجال من بني آدم يمشون بين الناس كجواسيس وهم في الحقيقة شياطين يسوسون بالشر بين الناس ، وهم أصدقاء السوء يحضون الناس على فعل الأفعال الخبيثة .



فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ "وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ" ، قَالَ : خيل تسير في معصية الله ، وكل رجل يمشي في معصية الله⁵⁶ ، وقال مجاهد (كُلُّ رَاكِبٍ وَمَا شَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ)⁵⁷

فإذا أراد إبليس أن يصرف ابن آدم عن الخشوع في الصلاة كلما هم بالخشوع أجلب عليه بخيله ، فيورد عليه كم هائل من الخواطر والمشاغل ليشغله عن ربه ، يقول له اذكر كذا الأولاد ، العمل ، المال .. الخ، فَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا

⁵² (إغائة اللهفان ج1 ص 6

⁵³ (رواه مسلم ج13 ص 425 رقم 5031

⁵⁴ (رواه مسلم ج13 ص 426 رقم 5032

⁵⁵ (شرح النووي على مسلم ج17 ص 157

⁵⁶ (تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 171 رقم 13706

⁵⁷ (تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 172 رقم 13707

نُودِي بِالصَّلَاةِ أَذْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ فَإِذَا قُضِيَ أَقْبَلَ فَإِذَا ثَوَّبَ بِهَا أَذْبَرَ فَإِذَا قُضِيَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ فَيَقُولُ أَذْكَرُ كَذَا وَكَذَا حَتَّى لَا يَدْرِي أَثَلَاثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا فَإِذَا لَمْ يَدْرِ ثَلَاثًا صَلَّى أَوْ أَرْبَعًا سَجَدَ سَجْدَتِي السَّهْوِ⁵⁸.

ومن خيل إبليس - كذلك - المرأة المتبرجة التي تظهر زينتها ومفاتها للرجال ، يقول النبي ﷺ (إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من وجهها وهي في قعر بيتها)⁵⁹، يعني رفع البصر إليها ليغويها أو يغوي بها فيوقع أحدهما أو كليهما في الفتنة أو المراد شيطان الانسان سماه به على التشبيه⁶⁰.

ومن رجل إبليس - أي المحارب المترجل أي الماشي على رجله - صديق السوء ، يجعله الشيطان رديفا لصاحبه ليوسوس عن طريقه له ، ولذلك يقول النبي ﷺ (الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ)⁶¹، وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُخَذِّبَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ يَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ يَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً)⁶².

ثالثا : مشاركة إبليس لحياة الإنس : وذلك لعدم التسمية على كل فعل وكل عادة أو عبادة ، وإهمال الذكر وسؤال الله البركة ، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : «الشَّيْطَانُ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ؛ فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَسَنَ، وَإِذَا غَفَلَ وَسَّوَسَ»⁶³.

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَضَعُ يَدَهُ وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ - أي الشيطان يدفعها - فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهَا - منعها من الأكل قبل التسمية - ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ - أي يدفعه الشيطان ليأكل بغير تسمية - فَأَخَذَ يَبْدُو فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذَكَّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ يَدَهَا فَجَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ يَدَهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا)⁶⁴.

وعن جابر أنه سمع النبي ﷺ يقول : (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عز وجل عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت وان لم يذكر الله عند طعامه قال الشيطان أدركتم المبيت والعشاء)⁶⁵.

58 (رواه البخاري ج 11 ص 63 رقم 3043

59 (رواه ابن خزيمة في صحيحه ج 3 ص 93 رقم 1685 و الترمذي والطبراني وغيرهم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة المجلدات ج 6 ص 187 رقم 2688

60 (التيسير بشرح الجامع الصغير ج 2 ص 881

61 (رواه أبو داود ج 12 ص 459 رقم 4193

62 (رواه البخاري ج 17 ص 214 رقم 5108

63 (رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ج 2 ص 445 رقم 899 ، انظر تخرجه السيوطي في جامع الأصول ج 2 ص 445

أخرجه البخاري تعليقا في التفسير - باب سورة { قل أعوذ برب الناس }.

ذكره البخاري تعليقا. ووصله الطبري ي ((جامع البيان)) (754 / 24) وهو عندهما موقوف على ابن عباس

64 (رواه مسلم ج 10 ص 292 رقم 3761

65 (رواه البخاري في الأدب المفرد ج 1 ص 376 رقم 1096

فإذا غفل المسلم عن ذكر الله والتسمية نزعت عنه البركة ، فإذا ذكر الله عادت إليه ، فعَنْ أُمِّيَّةَ بِنْتِ مَخْشِيٍّ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يَأْكُلُ فَلَمْ يُسَمِّ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ طَعَامِهِ إِلَّا لُقْمَةٌ فَلَمَّا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قَالَ مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ فَلَمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَقَاءَ مَا فِي بَطْنِهِ⁶⁶، ويعضد هذا الحديث قول النبي ﷺ (من نسي أن يذكر الله في أول طعامه، فليقل حين يذكر: بسم الله في أوله وآخره، فإنه يستقبل طعاماً جديداً، ويمنع الخبيث ما كان يصيب منه)⁶⁷.

كذلك لا بد من التسمية حتى عند الجماع لمنع إبليس اللعين من أن يتسلط ، إذا لم يسم الله عليه ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ جَنَّبِي الشَّيْطَانَ وَجَنَّبِ الشَّيْطَانُ مَا رَزَقْتَنِي فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ وَلَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِ)⁶⁸، قال النووي (قيل المراد بأنه لا يضره أنه لا يصصره شيطان وقيل لا يطعن فيه الشيطان عند ولادته بخلاف غيره قال ولم يحمله أحد على العموم في جميع الضرر والوسوسة والاعواء)⁶⁹.

نقل الإمام القرطبي وغيره عن مجاهد بن جبر أنه قال: «إذا جامع الرجل ولم يسم؛ انطوى الجان على إحليله فجامع معه»⁷⁰. وهو أثر يفسر كيفية تلك المقاربة المعنوية أو اللصوق الشيطاني عند غياب الذكر.

رابعا : تغريب الشيطان لابن آدم : يتسلل الشيطان إلى نفس ابن آدم بالوهم والتدليس؛ فيخوفه الفاقة والفقر إن هو جاد بصدقة، ويمتبه بالربح والكسب الخسيس إن هو قامر وولج باب الميسر، ويزين له السطوة والنفوذ إن هو استبد وظلم. وفي هذا التزييف الممنهج يقول الحق سبحانه (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۗ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّعِفَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: 268).

إن وعود الشيطان ما هي إلا حبائل ذكية لإذكاء جذوة الطمع في النفس البشرية، ودفعها صوب الرخص خلف الأوهام والتعلق بالسراب. لذلك حسم التنزيل الإلهي هذا الزيف بالتحذير من الاغترار بالدنيا وتقلباتها، فقال عز وجل : (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَلَا يَغُرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ) (لقمان: 33).

وقد قطع الله دابر هذا الوهم بالإخبار بأن وعود الشيطان محض سراب وخداع. وفي بيان حقيقة هذا الخداع، يوضح الإمام ابن عاشور مفهوم (الغرور) بأنه: "إظهار الشيء المكروه في صورة المحبوب الحسن".⁷¹

ومآل هذا كله، أن كل ما يوسوس به الشيطان للإنسان ويسوله له ليس إلا باطلاً وزخرفاً زائلاً. وفي طيات هذه الآيات نذير رباني بليغ يحذر العباد من اتباع خطوات الشيطان، ويدعوهم إلى اليقظة لأكاذيبه ومكائده⁷².؛ إذ إن السير في ركابه لا يورث العبد إلا أوهاماً خادعة، وخيبة أمل محققة، وخسراناً مبيناً.

66 (رواه أبو داود ج10 ص 220 رقم 3276 وضعفه الألباني ، وقال الحاكم : (صحيح الإسناد) . ووافقه الذهبي ! ! قلت : وليس كما قالوا فان المثنى هذا أورده الذهبي نفسه في (الميزان) وقال : (لا يعرف تفرد عنه جابر بن صبح قال ابن المديني : مجهول . ولهذا قال الحافظ في (التقریب) : (مستور) . إرواء الغليل ج7 ص26

67 (رواه ابن حبان في صحيحه ج12 ص 12 رقم 5213 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج1ص197 رقم 198

68 (رواه البخاري ج11 ص 61 رقم 3041

69 (شرح النووي على مسلم ج10 ص 5

70 (وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ج9 ص 370 وقال وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير عن مجاهد انظر تفسير القرطبي ج23 ص 65 من أهل العلم أن "مشاركة الشيطان في الجماع" لا تعني بحال من الأحوال اختلاط نطفة الجنى بنطفة الإنسي في تكوين الجنين الجسدي، وإنما هي مشاركة في التوجيه والتسلط والإغواء أو حضور الشيطان ومقاربتة للمكان والعمل حين يُحرم من طرد الذكر (مركز الأبحاث العقائدية)

<https://aqaed.net/faq/2463>

71 (التحرير والتنوير ج14 ص 123

72 (الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2653

كما أن الشيطان يعد ابن آدم بالأمان إذا سوّف التوبة ، فيغره بتأجيلها ، فعن ابن عباس في قوله (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) قال : (يقدم الذنب، ويؤخر التوبة)⁷³.

وعن أنس قال : (التسوية جند من جنود إبليس عظيم ، طالما خدع به)⁷⁴
قال ابن القيم (فليس للعبد أنفع من قصر الأمل ولا أضر من التسوية وطول الأمل)⁷⁵ .
جاء في الأثر (بادروا بالأعمال خمسًا هرمًا ناكسًا أو مرضًا معتدًا أو ندمًا قائمًا أو موتًا خالسًا أو تسويًا مؤيسًا)⁷⁶

قوله (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا) (65) ونظير ذلك قوله (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين)* وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) ، وقوله (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (100) ، قال ابن القيم (وتضمن ذلك أمرين :-

أحدهما نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص
والثاني إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه)⁷⁷.

قال ابن عجيبة (العباد الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، هم الذين أضافهم إلى نفسه؛ بأن اصطفاهم لحضرة قدسه ، وشغلهم بذكره وأنسه ، لم يركنوا إلى شيء سواه ، ولم يلتجئوا إلا إلى حماه ، فلا جرم أنه يحفظهم برعايته ، ويكلوهم بسابق عنايته ، فظواهرهم قائمة بأداب العبودية ، وبواطنهم مستغرقة في شهود عظمة الربوبية ، فلمّا قاموا بخدمة الرحمن ، حال بينهم وبين كيد الشيطان)⁷⁸.

وقد بين ابن القيم أنه (ليس لإبليس سلطان على عباد الله المؤمنين لأنهم في حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه ، والشيطان حين يدخل على العبد فإنه يدخل عليه مما ابتلى به ، أي من الغفلة والشهوة والغضب ، ولو احتذر العبد ما احتذر فلا بد له من غفلة ، ولا بد له من شهوة ، ولا بد له من غضب ، ولذلك وقع آدم عليه السلام فيما وقع فيه فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه ، فإذا وقع فتح الله له باب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجوء إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته حتى يقول **عدو الله : يا ليتني تركته ولم أوقعه .**

وهذا معنى قول بعض السلف : (إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ويعمل الحسنة يدخل بها النار) قالوا : كيف ؟ قال : (يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقًا وجلا باكيًا نادما مستحيا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له ، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها

73 (ابن أبي الدنيا : قصر الأمل ج 1 ص 140

74 (ابن أبي الدنيا : قصر الأمل ج 1 ص 140

75 (طريق الهجرتين ج 1 ص 413

76 (أخرجه الديلمي عن أنس (7/2) ، رقم (2072) .

77 (إغاثة اللفهان ج 1 ص 99

78 (البحر المنيد ج 3 ص 347

سعادة العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة ، ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه ، فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به ويدل به عنقه ويصغر به نفسه عنده ، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه⁷⁹.

ومن جماع ذلك كله يمكن القول بأن منتهى الخلاص من الشيطان التزام جماعة المسلمين بالتزام الصلوات الخمس معهم ، والجمعات ، ومجالس العلم ، والسعي في طلب الرزق معهم ... الخ ، لقول النبي ﷺ (ما من ثلاثة نفر في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)⁸⁰.

النقطة الرابعة : تخويف الإنسان من تقلب حاله ، درس عملي لمفهوم الإخلاص والنكوص على العقب انتقل السياق إلى إقامة الحجة العملية والمادية على الإنسان من واقع حياته، باستعراض موقف عملي للإنسان وهو يبتغي فضل الله مطمئناً في البحر وحاله عندما يصيبه الضرر في البحر ، ثم نكوصه علي عقبيه ، فهو بين حالين متناقضين : - الحال الأول : الإخلاص في الدعاء حال مواجهة الضرر في البحر (الفلك) : حيث يذكر الله الإنسان بنعمته في تسيير السفن ، فإذا ركب البحر وهجم عليه الموج والضّر، نسي أصنامهم ولجأ إلى الله وحده مخلصاً. الحال الثاني : النكوص علي عقبيه بعد النجاة : فبمجرد أن ينجي الله الإنسان إلى البر، يعود بعض الناس إلى كفره وإعراضه (استجابة للشيطان).

هنا يستوجب التهديد بالخسف والقصف بعد النجاة أول مرة ، إذ يهددهم الله بأن قدرته محيطة بهم في كل مكان؛ فمن أنقذكم من الغرق في البحر قادر على أن يخسف بكم البر، أو يرسل عليكم قاصفاً من الريح (عاصفة مدمرة) فيغرقكم.

والرابط الموضوعي بين هذا المقطع وما قبله أن تقلب الإنسان وجحوده، ويوضح كيف أن كفر القرى المستحقة للإهلاك ليس عن جهل، بل عن عناد مكرر، مما يؤكد استحقاقهم للعقوبة الإلهية في أي مكان (براً أو بحراً).

قوله (رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) (66) في هذا المشهد يصور القرآن الفلك تسيير في البحر محملة بالأمتعة للتجارة من بلد لآخر تمهيداً لمشهد آخر يظهر فيه الإنسان ، وقد انقلبت الظروف عليه بين لحظة وأخرى من نعمة ورخاء إلى ابتلاء شديد .



⁷⁹ (الوابل الصيب ج 1 ص 11)
⁸⁰ (رواه الحاكم في المستدرک ج 1 ص 330 رقم 765 وصححه الألبانی : صحيح أبي داود ج 3 ص 58 رقم 556)

قوله (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ اُغْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) (67) في هذه اللحظة الحثيثة يدرك الإنسان أن لا ملجأ له إلا الله ، حيث ينقلب البحر عليه فيكون معرضا للغرق ، وحينئذ يدعو الله أن ينجيه ، قال ابن جزى "ضل" هنا بمعنى (تلف وفقد) أي : (تلف عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه إلا الله وحده ، فلجأتم إليه حينئذ دون غيره ، فكيف تعبدون غيره وأنتم لا تجدون في تلك الشدة إلا إياه)⁸¹ .



فلما أنجاه ؟ هل أعرض أم وفي بوعده ؟

ذكر ابن كثير قصة عكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هاربًا، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه ، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه وأرضاه)⁸²

فهذا المثال ذكره القرآن لشرح عقيدة الإخلاص لله تعالى ، حتى يتعلم المكلفون كيف النجاة من تسلط الشيطان ، فالمخلصون لله وحده هم الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، وهذا الإخلاص لا يتحقق إلا في مثل هذا الموقف من الضر في عرض البحر ، فهذا الإخلاص التجردى لا يتجلى في أبهى صوره إلا في مثل تلك المواقف العصبية، كحالة الضّر في لجج البحر، (ضل من تدعون إلا إياه) .

وهنا، يُذكر سبحانه وتعالى العبدَ بفيض نعمته عليه؛ فالله هو الذي سيرّ الفلك ابتداءً، وأزجها بقوة الريح لتخور العباب، متنقلةً بالعباد بين الأمصار يبتغون من فضله تجارةً ورزقًا، فيستشعرون رحمته التي فتحت لهم آفاقًا واسعة للكسب والعيش. وهو سبحانه ذاته الذي عرّضهم لتلك الأمواج العاتية التي تتهدد تجارتهم بالغرق في أعماق البحار، وتوجس في نفوسهم خيفة هلاك أموالهم بل وهلاك أنفسهم.

وفي هذا الموقف الحالك، لا يجد العبد ملأً إلا الاستجارة بالله والابتهال إليه طلبًا للنجاة؛ إذ يوقن أنّ الذي أغدق عليه النعم أولاً هو وحده القادر على كشف الضر عنه إذا مسّه. فإذا ما أتمّ الله منّته عليه وبلغه برّ الأمان، أيعود إلى جحوده وكفرانه؟!

⁸¹ (التسهيل لعلوم التنزيل ج 1 ص 910

⁸² (تفسير ابن كثير ج 5 ص 96

فيا عجباً لهذا الإنسان! يدرك كُنْهَ الإخلاص في الشدائد والمحن، ويغفل عنه في الرخاء والسَّعة. وقس على ذلك أحوال المرض، والكروب، والمصائب، والزلازل؛ حيث تصفو النفوس وتكون أقرب ما تكون إلى الإخلاص واللجوء الخالص لله دون سواه".

يقول سيد قطب (والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أن يد الله تزجي لهم الفلك في البحر وتدفعه لبيتغوا من فضله "إنه كان بكم رحيمًا" فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان... ثم ينتقل بهم من الإجزاء الرخي للاضطراب العتي . حين ينسى الركب في الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر لا يدعون أحداً سواه : "ضل من تدعون إلا إياه " . .)⁸³.

قوله (..فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْنَاهُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) (67) يقول سيد قطب (ولكن الإنسان هو الإنسان ، فما إن تنجلي الغمرة ، وتحس قدماء ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة ، فينسى الله ، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات ، وتغطي على فطرته التي جلاها إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار .)⁸⁴.

النقطة الخامسة : تهديد الله للناجين أول مرة بالهلاك في المرة الثانية أو الثالثة .. الخ إذا ظلوا علي كفرهم وشركهم .

فالذي يعود للشرك بعدما أحس بالأمان ، وكان من قبل قد ذاق حلاوة الإخلاص واللجوء إلى الله في المحن ، هو يشعر بأمان زائف ، يقول سيد قطب (..وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي تركوه في البحر -أول مرة - وهو يلاحقهم في البر أو وهم يعودون إليه في البحر ، ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه ، لا في البحر ولا في البر؛ لا في الموجة الرخية والريح المواتية ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح)⁸⁵.

قوله (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بَكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) (69) تلك هي الإشكالية بعد إثبات المقدمة السابقة ، تلك المقدمة التي تؤكد على أن الإنسان مجبول على معرفة ربه ، بدليل أنه يلجأ إليه في الشدائد ، كما في قوله (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) [الأنعام : 63] ، فالإشكالية تكمن في أنه يأمن عقاب ربه ، ولا يحذره ، أو يخف عنه ذلك الحذر في الرخاء ولا يكون إلا عند الشدائد ، ولو أن حاله مع ربه في الرخاء كحالته في الشدة لما هدهد بالخسف والقذف والقصف والغرق .

⁸³ (في ظلال القرآن ج5 ص 34

⁸⁴ (في ظلال القرآن ج5 ص 34

⁸⁵ (في ظلال القرآن ج5 ص 34



ولذلك يحذر النبي ﷺ أمته لاسيما في آخر الزمان ، فعن النبي ﷺ قَالَ (بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مَسْحٌ وَحَسْفٌ وَقَذْفٌ)⁸⁶ ، وعن النبي ﷺ قَالَ (يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي حَسْفٌ وَمَسْحٌ وَقَذْفٌ)⁸⁷ ، وفي رواية زاد (ويبدأ بأهل المظالم)⁸⁸ ، وفي رواية يقول ﷺ (يَكُونُ فِي أُمَّتِي أَوْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَسْحٌ وَحَسْفٌ وَقَذْفٌ وَذَلِكَ فِي أَهْلِ الْقَدَرِ)⁸⁹ ، وعن رسول الله ﷺ قَالَ «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَبِيَّتُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أَشْرٍ وَبَطَرٍ وَلَعِبٍ وَكُفٍ فَيُصْبِحُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ بِاسْتِحْلَالِهِمُ الْمُحَارِمَ وَاتِّخَاذِهِمُ الْقَيْنَاتِ وَشُرْبِهِمُ الْخَمَرِ وَأَكْلِهِمُ الرِّبَا وَلُبْسِهِمُ الْحَرِيرِ»⁹⁰ .

وفي قوله (يُمْ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) فلا أحد يحاسب الله على ما يصنع يقول الشعراوي ("التابع" : هو الذي يتبعك لعمل شيء فيك ، أما "التبعية" : فهو الذي يؤايل تتبعك ، ويبحث عنك لأخذ ثأره منك ، فالمعنى : (إن فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تبعيةً يأخذ بثأركم أو ينتقم لكم) ، أي : (لا أمل لكم في ناصر ينصركم ، أو مدافع يحميكم)⁹¹ .

⁸⁶ (رواه ابن ماجه ج12 ص 72 رقم 4049 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج 2 ص 380 رقم 3280

⁸⁷ (رواه ابن ماجه ج12 ص 73 رقم 4050 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج 2 ص 381 رقم 3281

⁸⁸ (الأدب المفرد للبخاري ج4 ص 392 رقم 1787 : السلسلة الصحيحة للألباني ج4 ص 392 وقال . (صحيح) . وله شواهد كثيرة منها عن هلال بن يساف نحوه إلا أنه قال : فقال رجل من المسلمين : يا رسول الله ومتى ذاك ؟ قال : إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمر . وفي رواية زاد ويبدأ بأهل المظالم

⁸⁹ (رواه ابن ماجه ج12 ص 74 رقم 4051 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج2 ص 381 رقم 3282

⁹⁰ (رواه أحمد ج49 ص 483 رقم 23483 وقال الألباني حسن لغيره : صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 301 رقم 2377

⁹¹ (تفسير الشعراوي ج1 ص 5271

النقطة السادسة : تذكير الله للإنسان بتكريمه وسيادته وتفضيله علي العالمين ليحذر من مهانة تسلط الشيطان عليه حتى يتسنى له أن يضطلع بمسئولية التكليف

فبعد عرض مشهد الجحود البشري والتهديد بالعقاب، يُختم السياق بهذه المقارنة العظيمة:
(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) : هذه العبارة تضمنت تذكيرا للإنسان بأصله ومكانته الفطرية. بأن الله كرمه بالعقل، وسخر له البر والبحر، وفضله على كثير من الخلق، فكيف يترك هذا التكريم الإلهي وينقاد لإبليس ليحتنكه ويهيننه ويذله تلك المذلة ؟

فالدنيا ما هي إلا ساعات وتنقضي ، ثم تأتي الآخرة يوم ندعو كل أناس بإمامهم : فهذا هو المشهد الختامي والفرز النهائي يوم القيامة ، حيث ينقسم الناس لفريقين : فريق في الجنة ذلك الذي حافظ علي إكرام الله له وخلص من تسلط الشيطان ، وآخر رضي بمتابعة إبليس فاحتنكه ، وقادره إلى الهلاك في الدنيا والآخرة .

قوله (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) (70) وذلك لنفي شبهة السؤال عن سبب القذف والخسف والغرق وما يصيب الإنسان من عذاب الله تعالى ، فيعقب المولى القدير قائلا (ولقد كرمنا بني آدم) هذا هو الأصل ، ولهذا التكريم سبب ، وهو مرتبط بالتكليف والاستخلاف .

قال ابن تيمية (وَقَدْ حَافَظَ الْإِسْلَامُ عَلَى هَذِهِ الْمُنْزِلَةِ لِبَنِي آدَمَ جَعَلَهُ مُبْدَأَ الْحُكْمِ ، وَأَسَاسَ الْمُعَامَلَةِ ، وَأَخَاطَهُ بِسِيَاحٍ مِنَ التَّشْرِيعَاتِ ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ إِهْدَارُ كَرَامَةِ أَحَدٍ بِالْإِعْتِدَاءِ عَلَيْهَا : بِالْقَتْلِ أَوْ بِمُتَاكِ عِزِّهِ ، أَوْ بِالسُّخْرِيَةِ مِنْهُ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِ ، وَهِيَ عَنِ الْمُثَلَّةِ فِي حَيَاتِهِ ، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْأَعْدَاءِ أُنْتَاءَ الْحَرْبِ ، وَبَعْدَ انْتِهَائِهَا)⁹².

قوله (وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (70) فللتكريم مظاهر ، ومن مظاهر التكريم التي ركزت عليها الآية أن الله حمل الإنسان على الدواب في البر وعلى السفن في البحر ، وأن الله سخر له الكون فجعله يأكل من الطيبات من الزرع والأنعام ، ولم يقتصر التكريم على التسخير وحسب ، وإنما جعله مفضلا على غيره من الخلق ، فمن مظاهر ذلك كما قال العلماء (فإن الإنسان يمشي قائما منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه)⁹³ .

فعن ابن عباس قال (جعلناهم يأكلون بأيديهم، وسائر الخلق يأكلون بأفواههم)⁹⁴، قال ابن كثير في تفسير الآية : أَي (لَقَدْ شَرَّفْنَا ذُرِّيَّةَ آدَمَ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، بِالْعَقْلِ ، وَالْعِلْمِ ، وَالنُّطْقِ ، وَتَسْخِيرِ مَا فِي الْكَوْنِ لَهُمْ ، وَفَضْلِنَاهُمْ عَلَى مَنْ خَلَقْنَا مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَأَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْجِنِّ ، وَالْبَهَائِمِ وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ)⁹⁵ .

⁹² (مجموع الفتاوى

⁹³ (أضواء البيان في إيضاح القرآن ج3 ص 175

⁹⁴ (تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 173

⁹⁵ (تفسير ابن كثير ج 5 ص 97



قال ابن تيمية في قَوْلُهُ : " بَمَنْ " لِلتَّبَعِضِ " (فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُفَضِّلُوا عَلَى الْجَمِيعِ) ⁹⁶، وذلك لقوله في الكفار (وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف 179) وقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) (محمد 12) .

قال ابن تيمية (فسبحان من البسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقدر المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الاخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد .. فالدنيا قرية ، والمؤمن رئيسها ، والكل مشغول به ساع في مصالحه ، والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والملائكة الموكلون به يحفظونه والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه والافلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات لاجاريات بحساب ازمته واوقاته وإصلاح رواتب اقواته والعالم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما اودع فيه والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه ارضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل ما فيه) ⁹⁷.

النقطة السابعة : تخويف الانسان من أن تعمي بصيرته في الدنيا فينقلب ذلك إلى عمى البصر في الآخرة

قوله (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) فقال مجاهد وقتادة أى : (بنبيهم) ⁹⁸، وذلك لأنه هو الشاهد عليهم ، وذلك كقوله تعالى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) ، وقال مقاتل (بكتابهم) ⁹⁹ ، لأنه الهادي لهم ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ : (إمام هدى، وإمام ضلالة) ¹⁰⁰

وكل ما ورد من هذه الأقوال صحيح ، فكل رأي ينظر من جهة مختلفة لذات الشيء ، قال مفتي الديار المصرية (ويحتمل أن المراد بإمامهم : أن كل قوم بمن يأتون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء - عليهم السلام - ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم في الكفر . . .) ¹⁰¹، دليل ذلك ما ورد في الصحيحين : " لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت . . . " الحديث .

⁹⁶ (مجموع الفتاوى ج 4 ص 355)

⁹⁷ (مفتاح دار السعادة ج 1 ص 264)

⁹⁸ (تفسير ابن كثير ج 5 ص 98)

⁹⁹ (تفسير مقاتل ج 2 ص 268)

¹⁰⁰ (تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 173)

¹⁰¹ (الوسيط لسيد طنطاوي ج 1 ص 2659)

قوله (فَمَنْ أُوْبِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) (72) فهاتان الآيتان رسمتا طريقين لصنفين من الناس لا ثالث لهما ، أحدهما يأتم بالقرآن هاديا له ومستعينا بالله ناصرا له ، يتيمن في كل شيء ، فهؤلاء يمن الله عليهم يوم القيامة بأن يأخذوا كتاب أعمالهم باليمين مستبشرين يقرأونه فيجدون أنفسهم وقد استوفوا حقهم ولم ينقص من أجرهم شيء على نصبهم وتعبهم في سبيل الله ، وصنف آخر كان يعيش في هذه الدنيا كالأعمى لا يريد أن يرى الحق ، ولا يريد أن يستبصر بضوء القرآن الكريم ، فهذا الصنف يحشره الله تعالى يوم القيامة أعمى البصر حقيقة كما كان أعمى البصيرة في الدنيا.

والرابط بين هذه الآية وما قبلها هو نظرة الإنسان واعتباره بتكريم الله له، فعَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: جَاءَ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَسَأَلَهُ رَجُلٌ: أَرَأَيْتَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى)، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمْ تَصِبِ الْمَسْأَلَةَ أَقْرَأَ مَا قَبْلَهَا: " رُبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ، حَتَّى بَلَغَ: وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (فَمَنْ كَانَ أَعْمَى عَنْ هَذَا النِّعَمِ الَّذِي قَدْ رَأَى وَعَايَنَ، فَهُوَ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ الَّذِي لَمْ تَرَ وَلَمْ تَعَايَنَ " أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)¹⁰²، فمن اعتبر بما كرمه الله به كان من أصحاب اليمين ، ولمن لم ير تكريم الله له في خلقه وتسخير الكون له وتشريعاته المنظمة لأمواره فهو أعمى.

قال سيد قطب (ومن التكريم أن يكون الإنسان قيماً على نفسه ، محتملاً تبعه اتجاهه وعمله ، حرية الاتجاه وفردية التبعة ، وبهما أستخلف في دار العمل ، فمن العدل أن يلقي جزاء اتجاهه وثمره عمله في دار الحساب) .

